دار الكتب والوثائق القومية
الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تحقيق التراث

تراثيات

مجلة علمية محكمة يصدرها مركز تحقيق التراث

العدد الثالث والعشرون

يوليو ٢٠٢٣م

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٤ م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
أ.د. أسامة طلعت
رئيس مجلس الإدارة

تراثيات/مجلة محكمة يصدرها مركز تحقيق التراث بدار
الكتب . ـ س ١، ع ١ (يناير ٢٠٠٣).
. ـ القاهرة:
مطبعة دار الكتب، ٢٠٠٣ –   .
مج ؛ ٢٩سم.
نصف سنوية.

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

لايجوز استنساخ أى جزء من هذا العمل بأى
طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى
من الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٣/١٢٢٠٧

تراثيات
مجلة محكمة يصدرها مركز تحقيق التراث

في هذا العدد

افتتاحية العدد — رئيس التحرير — ٥

بحوث ودراسات :

- الأسس اللغوية والرياضية لعلم تركيب وحل الشفرة عند العرب — أ. د. أحمد عزب — ٩
- بَيْنَ الأُدَبَاءِ والنُّحَاةِ إِشْكَالِيَّةُ (الْجَفَنَاتِ والأَسْيَافِ) في بَيْتِ حَسَّانَ رضي الله عنه — أ.د. أحمد عيد عبد الفتاح حسن — ٥١
- التراث العلمي لمكة المكرمة في عصر الراشدين — أ. د. صلاح الدين علي عاشور — ٧٥
- الْكَوَارِثُ الطَّبِيعِيَّةُ والْبَشَرِيَّةُ، وأَثَرُهَما فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَة خِلالَ الْقُرُونِ الأَرْبَعَةِ الأُولَى لِلْهِجْرَةِ — د. محمود محمد خلف - أ. هادي محمد نمشان الحارثي — ١٠٧
- بنو الأحمر والمماليك (دراسة تاريخية في العلاقات) — د. نورا عبدالعظيم — ١٤١
- البيمارستانات في القاهرة — د. منى علي أبو العزم — ١٦٥
- علم التعمية من صور سَبْق الحضارة الإسلامية — أ. إكرامي عشري — ١٨٥

هيئة التحرير

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. أسامة طلعت

رئيس الإدارة المركزية للمراكز العلمية
د. أشرف قادوس

رئيس التحرير
أ. د. إبراهيم الهدهد

سكرتير التحرير
د. نورا عبدالعظيم

مستشارو التحرير

إبراهيم شبوح (تونس)

أحمد شوقى بنبين (المغرب)

أسامه ناصر النقشبندى (العراق)

رضوان السيد (لبنان)

فيصل الحفيان (سوريا)

يحيى محمود بن جنيد (السعودية)

دار الكتب والوثائق القومية

المراسلات
مركز تحقيق التراث - دار الكتب والوثائق القومية
كورنيش النيل- رملة بولاق - القاهرة
ت : ٥٧٥١٠٨٦ - فاكس : ٥٧٨٩٦٧٨
E-mail:scenlers@darelkotob.org

مدير المطبعة
محمود يونس سيد

افتتاحية العدد

الحمد لله على نعمة التوفيق، وبعد

تتحف مجلة تراثيات قراءها في هذا العدد بلوحة معرفية تراثية في هذا العدد:

البحث الأول :الأسس اللغوية والرياضية لعلم تركيب الشفرة وحلّها عند العرب ،وهذا البحث يبين سبق العرب لهذا الموضوع من خلال التنقيب في التراث العلمي واللغوي ، والبحث الثاني :يبحر في التراث بين الأدباء والنحاة لبيان معني الجفنات والأسياف وأسس البناء الصرفي للجمع ودلالاته عند النحاة والأدباء ، وهو مبني على الإبداع النقدي للخنساء في العصر الجاهلي ، والبحث الثالث: يكشف التراث العلمي لمكة المكرمة في عصر الخلفاء الراشدين وقد دبجّه مؤرخ مجيد والبحث الرابع : يعود بنا إلى القرون الأربعة الأولى كاشفًا أثر الكوارث الطبيعية والبشرية وأثرها في مكة المكرمة ،والبحث الخامس : يرصد العلاقات التاريخية بين بني الأحمر والمماليك ، والبحث السادس: نادر لطيف يرصد البيمارستانات في القاهرة ، أما البحث السادس :فهو نادر التوجه دقيق إذ يبين لنا سبق الحضارات الإسلامية لعلم التعمية ، وأسرة التحرير تتمني لقرائها وقتًا نافعًا ممتعًا معها.

رئيس التحرير

أ.د/إبراهيم الهدهد

بحوث ودراسات

البيمارستانات في القاهرة

د. منى علي أبو العزم(*)

أدرك المصريون القدماء مبكرًا أهمية الطب ودراسته لمحاربة الأمراض والأسقام التي تعتري جسم الإنسان، فعرفوا طرق التداوي المختلفة وبرعوا فيها . وقد توصلوا إلى أن لكل مرض دواء إلا الموت، فهو نهاية لحياة الإنسان، ولينتقل إلى الحياة الأبدية الخالدة.

وعلى مر العصور اهتم سلاطين مصر وحكامها بتقديم الخدمات الطبية لعلاج المرضى والقضاء على الأمراض والأوبئة التي تصيب الإنسان ..

وعن مدينة القاهرة فهي رابع العواصم الإسلامية، تم أنشاؤها في مصر بعد بناء مدينة الفسطاط التي بناها عمرو بن العاص في (٢١هـ/ ٦٤٢م)، ومدينة العسكر التي بناها الأمير أبو عون بن يزيد في (١٣٥هـ/ ٧٥٢م)، ومدينة القطائع التي بناها أحمد بن طولون (٢٥٤هـ/ ٨٦٨م) - وقد أنشأها المعز لدين الله الفاطمي بأمر من قائده جوهر الصقلي[١] بعد أن انتقل حكم مصر إلى الفاطميين بقصد أن تكون مستقرًا للخليفة ومعقلًا يتحصن به، أطلق عليها اسم القاهرة اشتقاقًا من اسم النجم القاهر الذي بزغ في سمائها عند وضع أساسها، وتحدد موقعها على سهل رملي، وتم تخطيط القاهرة بنفس الرسم الذي وضعه الخليفة المعز لدين الله الفاطمي بنفسه، وأصبحت القاهرة بعد إنشائها بأربعة أعوام عاصمة للخلافة الفاطمية[٢].

وبدأ إعمار المدينة بإنشاء السور والبوابات، وفي المركز القصران الكبيران الخاصان بالخليفة: القصر الشرقي، والقصر الغربي، وما بينهما من مساحة سميت (بين القصرين)، وامتد بها شارع المعز التي تفرعت منه العديد من الحارات والأزقة، والتي تعتبر إلى الآن عصب القاهرة الفاطمية. وانتشرت بالمدينة أماكن الترفيه المفتوحة.

وقد انتعشت القاهرة اقتصاديًا واجتماعيًا، وعلى الرغم من ذلك ظلت مدينة الفسطاط - التي أنشأها عمرو بن العاص بالقرب من حصن بابليون بجوار الكنيسة المعلقة تضم معظم المراكز التجارية، ويسكنها العامة إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي، فبدلًا من إنشاء عاصمة جديدة أقام سور القاهرة؛ لتضم العواصم المصرية السابقة: الفسطاط، والعسكر، والقطائع، والقاهرة الفاطمية - في مدينة واحدة؛ وبذلك امتدت

(*) دكتوراه في التاريخ الحديث

(١) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية في خطط المعزية، ص ١٠- ١٣ .

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ٧/ ١٠٠ ،١٠١

القاهرة لتضم هذه المدن، حتى وصلت إلى قلعة الجبل التي بناها صلاح الدين تطل على القاهرة، واستمرت مقر الحكم حتى عصر الخديو إسماعيل الذي نقله إلى قصر عابدين[١].

ثم جاء حكم المماليك الذي ملأ فراغات القاهرة بالمساجد وملحقاتها من بيمارستانات ومدارس، وتبارى السلاطين في إقامة هذه المساجد أو المباني التي تخلِّد ذكراهم، وامتدت القاهرة، وتعددت الأسواق، وازدهرت التجارة بين المشرق والمغرب[٢]، وازدهرت القاهرة كمركز للتجارة والحرف، وانتشرت الفنادق، وامتدت الأسواق التجارية على طول الطرق، وكان لكل سوق اسمه النوعي كـ: الصناديقية، والصاغة، والخيامية، وغيرها[٣] .

وقد ضمت هذه المدينة العريقة بين جوانبها العمارات والأبنية الشامخة التي تتميز بها، منها ما تهدم وتلاشى تمامًا بعوامل الزمن، ومنها لا يزال باقيًا يشهد على تاريخ القاهرة وعراقتها، من هذه الأبنية التي ظهرت خلال العصور الوسطي بالعالم الإسلامي (البيمارستانات) - ويعني بيوت المرضى - هو مكان أنشأه الحكام لتقديم الرعاية الصحية والخدمات الطبية اللازمة للمرضى، يتلقون بها الأدوية والعلاج اللازم للشفاء من أمراضهم، وقد اهتم حكام مصر على مر العصور بإنشائها؛ ليحصل المرضى على علاجهم، و كذلك للتقليل من انتشار الأوبئة الفتاكة التي تحصد الأرواح وتجلب الخراب والدمار على أية دولة، وقيل إن أول من شيد بيمارستان - بشكله المعروف- في العالم الإسلامي كان الوليد بن عبد الملك - سادس خلفاء بني أمية -وكان ذلك عام ٨٨ هـ، وعين بها الأطباء، وربط لهم مرتبات ثابته تكفي لمعيشتهم[٤]. وأمر بإنشاء مستشفي خاصة بالجذام، وأمدها بأمهر الأطباء، وأمر بعزل المرضى عن الأصحاء؛ كي لا تنتشر العدوى، وهو ما أطلق عليه دور المجذومين، وقد انتشرت هذه البيمارستانات بعد ذلك في مختلف البلدان الإسلامية لتقديم العناية الإنسانية والطبية لهؤلاء المرضى التعساء، وتعد المجاذم العربية أول دور أنشأت لعلاج مرضي الجذام بشكل علمي في العالم، كما منح لهم الوليد بن عبد الملك مرتبات وإعانات شهرية لإعانتهم على المعيشة[٥].

(١) ابن عبد الظاهر: الروضة البهية في خطط المعزية، ص١٣.

(٢) دي فوجاني: القاهرة وضواحيها، ص ٢٤٧.

(٣) سهير زكي حواس: القاهرة الخديوية، ص ١٢٤. تغريد عرفة: آثار القاهرة الإسلامية من كتاب وصف مصر، ص ١٣٩ .

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/ ٤٠٥ .

(٥) علي محمد محمد الصلابي: الدولة الأموية: عوامل الازدهار، و تداعيات الانهيار، ص ٩٠-٩١.

وذكر المقريزي أن الوليد بن عبد الملك أول من أنشأ دار الضيافة، وجعل في البيمارستان أطباء، وأجرى لهم الأرزاق، وأمر بحبس المجذومين لِألا يخرجوا، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق[١].

قد سار على هذا النهج العديد من الملوك والسلاطين في العالم الإسلامي، لا سيما مصر، فاهتم حكامها منذ القدم بتقديم الخدمات الطبية اللازمة لشعبها، فقد أنشئت البيمارستانات في مدينة القاهرة، منها ما تلاشى ولم يعد له أثر، ولكننا عرفنا عنه بعض المعلومات من المصادر، ومنها لا يزال باقيًا، بل يستقبل فيه المرضى ويتلقون فيه العلاج اللازم..

وتوالى أنشاء وإقامة البيمارستانات في أنحاء القاهرة، منها بيمارستان ابن طولون، وتم إنشاؤها في أرض مدينة العسكر[*] وهي مكان يقع بين جامع ابن طولون وكوم الجارح، وقد تلاشت هذه البيمارستانات بشكل كامل، ولم يبق لها أثر، وذكر المقريزي أن ابن طولون أنشا جامعهُ، وألحق به ميضأة وخزانة شراب فيها جميع الشرابات والأدوية، ووضع عليها خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة؛ لتقديم المعونة الطبية للمصلين، وقد أنشئ هذا البيمارستان في ٢٦١هـ، وبلغت تكاليف إقامته ستين ألف دينار .

وعندما انتهى من بنائه أوقف عليه دار الديوان والأساكفة والقيساوية وسوق الرقيق؛ لتوفير الأموال اللازمة لها، كما اشترط ألا يعالج فيها جندي ولا مملوك، وكذلك أمر ببناء حمامين للبيمارستان: أحدهما للرجال، و آخر للنساء، ووضع نظامًا صارمًا للبيمارستان، فقد اشترط أنه إذا جاء بالمريض تنزع عنه ثيابه وأمواله، وتترك عند أمين البيمارستان، ثم يلبس ثيابًا أخرى، وينام على سرير يفرش له، ثم يقوم الأطباء بالكشف عليه وإعطائه الأدوية اللازمة، وكان ملحقًا به خزانة للشراب توفر الأدوية اللازمة للمرضى[٢] حتى يبرأ، فإذا أكل دجاجة ورغيفًا – كان ذلك من علامات الشفاء – سمح له

(١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ١/ ٣٠٠-٣١٧ .

(*) أحمد بن طولون: تركي الأصل كان قائدًا لحرس الخليفة العباسي المعتز بالله، أرسل إلى مصر واليًا عليها بالنيابة عن القائد التركي (بابكياك)، فاستمر واليًا عليها من قبل الخليفة، ونزل أحمد بن طولون عند قدومه إلى مصر بدار الإمارة في العسكر، ولكنه لم يدم بها طويلا، وأراد أن ينشئ عاصمة جديدة له تكون مقرًا لحكمه فشرع في بناء مدينته القطائع ، لمزيد من المعلومات انظر: ابن الأثير، الكامل ٧/ ٦٠ . أحمد فكري: مساجد القاهرة و مدارسها ، ص ٦٠.

(٢) المقريزي: المصدر نفسه والجزء ٣٣٠ ، ٤٢٠. نفسه ٢/ ٢٦ ، ٤٠٦. علي حسن الخربوطلي: مصر العربية الإسلامية، القاهرة، سنة ١٩٦٣ ، ص ١٣٠.

بالمغادرة إلى منزله، وأعطي له ماله وثيابه، وكان أحمد بن طولون يركب دابته في كل يوم جمعة ويتفقد بنفسه خزائن البيمارستان وما فيها، والأطباء وسائر المرضى، والمحبوسين من المجانين، فقد سمح للجميع بالعلاج فيها على اختلاف أجناسهم وأديانهم و طبقاتهم مجانًا، فكان أول بيمارستان في مصر.

وفي العهد الإخشيدي قام كافور الإخشيدي - والذي كان الحاكم الفعلي للبلاد خلال حكم الأمير أبي القاسم أنوجور بن محمد الإخشيدي - ببناء بيمارستان كافور عام ٣٤٦هـ .

وخلال العصر الأيوبي أمر صلاح الدين بإنشاء بيمارستان للمرضى والضعفاء، واختار له مكانًا بالقصر، ووفر له موارد مالية تبلغ مائتيّ الف دينار، وغلالًا من أرض الفيوم، وعين بها أطباء وجراحين ومشرفين وعمالا وخدمًا .

وكذلك أمر بافتتاح بيمارستان بقاعة بناها العزيز بالله سنة ٣٨٤هـ، وقيل إن القرآن كان مكتوبًا على جدرانها، ومن خواصها أنها لا يدخلها النمل لطلِّسم بها، ولما ذُكر ذلك لصلاح الدين قال: إن هذا المكان يصلح أن يكون بيمارستانًا، وكان يقع هذا البيمارستان بمكان معروف بدار الديلم، وهو منطقة ما بين منطقة الخيامين وجامع الأزهر(١).

وهناك بيمارستان المغافر الذي كان يقع في منطقة خالية على أطراف القاهرة بين العامر من المدينة، وبين مصلى خولان بالقرافة، بناه الفتح بن خاقان في خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله، و قد تلاشى أثره تمامًا .

وفي خط تحت الربع أنشأ عبد الرحمن كيخيا بيمارستانًا للنساء، وحتى نهاية القرن الثامن عشر، كان يستقبل المريضات، فقد ذكر في كتاب (وصف مصر) أنها حينذاك كانت بها ست وعشرون امرأة مريضة، وربما يحمل الاسم النوعي (تكية) يعني ذلك أن التكايا - خلال هذه الفترة ذ في بعض الأحيان كانت تؤدي دور المشفى، يتم تقديم الرعاية الصحية بها، ومثال على ذلك بيمارستان الدراويش الذي أسسه السلطان الظاهر بيبرس في طريق الصليبة الكبير، ويعرف بـ (تكية العجم) وكانت مجاورة للجامع الذي يحمل نفس الاسم، وذكر أنها كان بها أيام الحملة الفرنسية ما يقرب من ستة عشر مريضًا(٢).

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ١/ ٤٠٧.

(٢) المقريزي: المصدر نفسه: ٢/ ٤٠٦ . علماء الحملة الفرنسية: وصف مصر ، ج ١٠ ، مدينة القاهرة ، ص٢٠٠- ٢٠٤.

ومن هذه البيمارستانات التي لا تزال قائمة آثارها إلى الآن بيمارستان المنصور بن قلاوون والبيمارستان المؤيدي[١]، وسوف نتناولهما بشيء من التفصيل.

أولاً - البيمارستان الكبير المنصوري (بيمارستان قلاوون)

المنصور قلاوون هو السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي أحد المماليك الأتراك البحرية، اشتراه الأمير علاء الدين آق سنقر الساقي العدل بألف دينار، وهذا يدل على أنه كان مملوكًا يتمتع بمواصفات ومميزات خاصة لا تتوفر في غيره، وعندما توفي الأمير علاء الدين انتقل مماليكه إليه، ومنهم قلاوون إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب، فعُرفوا بالعلائية، ثم إن السلطان الصالح جعل قلاوون من جملة المماليك البحرية الذين أسكنهم قلعة الروضة، ونسبوا إليه، فقيل لهم الصالحية[٢].

وفي عام ٦٧٨هـ -١٢٧٩م عين ملكًا على مصر، ولقب بالملك المنصور، فكان عصره عصر رخاء ورفاهية[٣] انتعشت فيه الفنون والعمارة، وقد ألغى الكثير من المكوس، وحارب التتار وهزمهم في حمص، كما هزم الصليبيين في مواقع كثيرة[٤]، وتوفي لية السبت ٦ من ذي القعدة عام ٦٨٩ هـ - بعد مرض استمر ١٩ يومًا - وبعد أن حكم مصر إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر، ودُفِن في مقبرته بالقبة التي أنشأها في مجموعته المعمارية بشارع بين القصرين التي كانت من أعظم وأهم ما قام به المنصور قلاوون، والتي ضمت مسجدًا وبيمارستانًا ومدرسة أقامها على أرض القصر الفاطمي الصغير الغربي، كان البيمارستان هو السبب الأول في بناء المجموعة المعمارية كلها، وكان ذلك لسببين: أولهما ذكره المقريزي في المواعظ والاعتبار أن الملك المنصور عندما كان أميرًا توجه إلى غزو الروم ٦٧٥هـ - ١٢٧٦م في أيام حكم الظاهر بيبرس، فأصابه بدمشق مرض عظيم، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من بيمارستان نور الدين محمود - وكانت من أشهر بيمارستانات الشام، وقد أمر بإنشائها السلطان الملك العادل نور الدين محمود زنكي، وظلت تعالج المرضى حتى عام ١٢١٧هـ - ١٨٩٩م - فشفي وبرئ من مرضه، وركب حصانه، وزار البيمارستان، وشاهده وأعجب به، ونذر إن آتاه الله ملك مصر أن يبني بها بيمارستانًا كبيرًا، وتم ذلك[٥].

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار،١/ ٣٦٢ .
(٢) محمد حمزة الحداد: السلطان المنصور قلاوون ، ص١٧.
(٣) العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ٢/ ٢٢٦ .
(٤) المصدر نفسه ١/ ٣٦٠ -٣٦١ .
(٥) المقريزي: المصدر نفسه ٢/ ٤٠٦ .

أما السبب الثاني لبناء البيمارستان فقيل إن السلطان أصدر أحد الأوامر، فلم ينفذها جماعة من العوام، وخالفه ورجموا المماليك، فغضب السلطان، وأمر المماليك أن يقتلوا كل من وجدوه من العوام، فاستمر السيف يعمل فيهم ثلاثة أيام فقتل في هذا ما لا يُحصى عددهم من العوام، وراح الصالح والطالح، فلما تزايد الأمر طلع القضاة ومشايخ العلم إلى السلطان وشفعوا فيهم، فأمر بكف القتال عنهم بعدما قتل من الناس جماعة كثيرة(١).

فلما جرى ذلك ندم السلطان على ما وقع منه، فأشار عليه بعض العلماء أن يفعل شيئًا من أنواع البر والخير لعل الله يكفر عنه ما جرى منه، فشرع في بناء البيمارستان، لعل بذلك يمحو ما تقدم من ذنبه، وقد أورد ابن عبد الظاهر تفسيرًا ثالثًا لبناء هذه المجموعة المعمارية، وهو أن السلطان قلاوون بعد أن فرغ من زيارة تربة أم الصالح، وشاهد حسن العمارة فيها «تشوقت نفسه الشريفة لفعل الخيرب، فاختار بناء بيمارستان عظيم الشأن لا تصل همة ملك إلى ابتناء مثله، ومدرسة للعلوم، وقبة شريفة مباركة لقراءة القرآن الكريم وتلاوته»(٢).

وقد اختار لإنشاء البيمارستان موقعًا بخط بين القصرين في موقع كان به قاعة لقصر ست الملك ابنة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله، ثم عرف بدار الأمير فخر الدين جهاركس بعد زوال الدولة الفاطمية وبدار موسك، ثم عرف بالملك المفضل قطب الدين أحمد ابن الملك العادل أبي بكر أيوب، وصار يقال لها الدار القطبية، فأخذها الملك المنصور قلاوون من ذريته من مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل - المعروفة بالقطبية - وعوضت عن ذلك قصر الزمرد برحبة باب العبد(٣).

وقد غلب اسم البيمارستان على مجموعته المعمارية؛ لأنه السبب في إنشائها، وعهد إلى الأمير سنجر الشجاعي بتنفيذ مشروعه؛ لأنه كان خبيرًا بالعمارة، و كان الأمير سنجر متعسفًا غشومًا، فقد حشد إلى العمارة ثلثمائة أسير، وحشد عددًا كبيرًا من الصناع، وأمرهم جميعًا بالعمل في هذه العمارة، ومنعهم من العمل في غيرها، وقام بنقل أعمدة جرانيت من قلعة الصالح نجم الدين أيوب بالروضة ورخام، وغيره ، الذي احتاجها في بناء البيمارستان(٤).

(١) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ١/ ٣٥٤ .
(٢) محمد حمزة الحداد: السلطان المنصور قلاوون، ص١٢١،١٢٢ .
(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/ ٤٠٧ .
(٤) ابن إياس: المصدر نفسه، ١/ ٣٥٣ .

وقد بدأ إنشاء هذه العمائر في شهر ربيع الآخر ٦٨٣هـ - ١٢٨٣م وانتهى البناء في جمادى الأولى عام ٦٨٤هـ - ١٢٨٤م أي أن القبة والمدرسة والبيمارستان استغرق بناؤها ١٤ شهرًا فقط، وقد نقش ذلك التاريخ على واجهة الباب الرئيس، بما نصه: (أمر بإنشاء هذه القبة الشريفة العظيمة والمدرسة المباركة والبيمارستان المبارك مولانا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي، وكان ابتداء عمارة ذلك في ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة والفراغ منه في جمادى الأولى سنة أربع و ثمانين و ستمائة)[١]، وقد نقش على بقية المجموعة تاريخ البدء، والانتهاء من أجزائها، ولكن عظم مساحة المجموعة وكثرة زخارفها ودقتها تجعل القول إنها شيدت في أربعة عشر شهرًا فقط غير منطقي، ويمكن تفسير ذلك أن هذه التواريخ كتبت عند الفراغ من كتلة البناء أوالواجهات لا الزخارف، فمن المستحيل أن تكون هذه الزخارف[*] والرسومات انتهت مع أعمال البناء خلال هذه الفترة الوجيزة[٢]، ومما لا شك فيه أن البيمارستان كانت الدافع الأول لإنشاء هذه المجموعة .

أما عن عمارة هذه البيمارستان فقد أبقى الأمير سنجر الشجاعي قاعة القطبية على حالها، وجعلها جزءًا من البيمارستان، وكانت ذات إيوانات أربعة، وبدور قاعتها فسقية[٣].

وكان بها دهليز كان بأقصاه باب كبير معقود حقبه بالطوب الآجر والجبس بعتبة سفلى صوان يغلق عليه زوج أدراف مدهون مذهب بحشوات منقوشة مذهبة يدخل منه إلى قاعة كبرى وهي البيمارستان المبارك، تحوي أربعة أواوين متقابلة مسقفة بقباب وأخياط مزينة بالذهب واللازورد والأصباغ المختلفة، وأربع قاعات متفرقة ومطبخ وبيوت

(١) المقريزي: كتاب السلوك ١/ ٣: ٧٢٥ .

(*) وقد عزز هذا الرأي اختلاف المؤرخين حول تاريخ دفن المنصور قلاوون في القبة التي بناها في هذه المجموعة، فقد ذكر كثير منهم أنه دفن بها رفاته، وقال اثنان بخلاف ذلك، أولهما: مفضل بن أبي الفضائل الذي يقرر أنه في ١٠ محرم سنة ٦٩٠هـ نقل السلطان الشهيد المنصور من القلعة، ودخلوا به من باب البرقية وصلوا عليه بجامع الأزهر، وحمل إلى تربته ودفن بالقبة، وثانيهما: ابن الفرات في حوادث ٦٨٩هـ -١٢٩٠م إذ يقرر أن المنصور قلاوون حينما اعتزم السفر إلى عكا ونزل بخيمته في منزلة مسجد التبر وكان عليلًا، واشتد مرضه فبقي هناك إلى أن توفي يوم ٦ من ذي القعدة، وحمل إلى قلعة الجبل ليلًا، واستمر بها إلى آخر يوم الخميس غرة محرم ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م وفي يوم ٢ محرم نقلت جثته إلى تربته التي أنشأها بالمدرسة المنصورية داخل القاهرة. حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية في القاهرة ١/ ١١٥.

(٢) حسن عبدالوهاب: المرجع نفسه والجزء والصفحة .

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/ ٤٠٧ .

برسم الحواصل وفسقية كبيرة بديعة الشكل تعلوها قبة محمولة على أربعة أعمدة من الرخام الأبيض مكملة القواعد الرخام المذهب[١].

و يتضح أن البيمارستان كان يتكون من قاعة كبرى وأربع قاعات متفرقة ومطبخ وبيوت برسم الحواصل، وكانت القاعة الكبرى تتكون من دور قاعة وسطى تحيط بها أربعة إيوانات متقابلة، وتزينت بشتى أنواع الزخارف الخشبية والحصبية والرخامية، ولا تزال بقايا هذه الزخارف المتمثلة في النوافذ والغريات والشاذروانات خير شاهد على ذلك، وكانت زخارف البيمارستان لا تقل روعة وبهاء عن زخارف القبة والمدرسة[٢]، للأسف لم يبق من هذا البيمارستان سوى بقايا قليلة وبحالة سيئة للغاية، إلا أنه اعتماداً على هذه البقايا وعلى ما أورده المؤرخون في حجة الوقف الخاص بها، وعلى المساقط الأفقية التي رسمت لهذا البيمارستان في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وقد انحصرت بقايا هذا الصرح في أجزاء من أيوانين كبيرين ترجع إلى عصر المنصور قلاوون، وقد عثرت إدارة حفظ الآثار العربية في القسم البحري للبيمارستان على أجزاء من سقوف خشبية بها رسوم طيور وحيوانات، وبها كتابات كوفية نقلت إلى دار الآثار العربية خلال هذه الفترة نهاية القرن التاسع عشر، وقررت لجنـــة حفظ الآثار[*] ترميم بقايا البيمارستان، وذلك بترميم الأرضية في المدخل، وتلوين الحيطان[٣] .

وعندما انتهت أعمال البناء أوقف عليها الملك المنصور عدة من الأراضي وأملاك وبساتين لتوفير النفقات اللازمة لهذا البيمارستان، وكذلك الرواتب والمخصصات المقررة للأطباء والعاملين به[٤]، ورتب مصاريف البيمارستان والقبة والمدرسة فبلغت ما يقرب ألف ألف درهم سنويًا[٥]. ويمدنا العقد الخاص بالوقف المخصص للبيمارستان بالكثير من المعلومات الخاصة عن تجهيزاته وإمكانياته وطريقة العمل به[٦].

---

(١) محمد حمزة الحداد: السلطان المنصور قلاوون، ص١٢٢ .

(٢) صلاح رفعت محمد علي: العمارة الإسلامية في العصر الإسلامي، ص ١٦٣.

(*) لجنة حفظ الآثار القديمة والعربية هي لجنة تكونت في نهايات القرن التاسع عشر واختصت في تقيم حالة الآثار الإسلامية والعربية، واتخاذ الإجراءات اللازمة للحفاظ عليها وترميمها .

(٣) لجنة حفظ الآثار القديمة والعربية، محاضر عن سنة ١٨٩٨م، المجموعة ١٥، المطبعة الأميرية ١٨٩٩، ص٣٠ .

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ١/ ٣٥٣ .

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار٢/ ٤٠٧-٤٠٨ .

(٦) الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنية، ص ٣٥٠-٣٦٧ . محمد حمزة الحداد: المرجع السابق، ص١٢٨ .

فقد ذكر أنه بعد انتهاء عملية البناء افتتح السلطان قلاوون البيمارستان بنفسه، وأقيم حفل كبير شارك فيه الأمراء والقضاة والعلماء والأئمة والحكماء، وقدمت فيه مختلف أنواع الأشربة والأطعمة ، ثم أعلن السلطان أمام الملأ أن هذا البيمارستان لجميع المسلمين من مختلف الطبقات: العليا، والدنيا على حد سواء، ويتساوى في الانتفاع به الملك والمملوك، والكبير والصغير، والحر والعبد، الذكر والأنثى، وسوف يتوفر فيه من الأطباء والمساعدين والصيادلة والأدوات والأدوية ما يكفي لعلاج جميع الأمراض الحسية والعقلية والعصبية باستخدام مختلف الأساليب العلاجية من عقاقير وجراحة[١].

و مما يؤثر عن المنصور قلاوون أنه لما زار البيمارستان عقب فراغه من تناول قدح من الشراب قال عنه: «قد وقفت هذا على مثلي فمَن دوني، و جعلته وقفًا على الملك والمملوك، والجندي والأمير، والكبير والصغير، والحر والعبد، والذكور والإناث، ورتبت فيه العقاقير والأطباء وسائر ما يحتاج إليه مَن به مرض من الأمراض، كما أمر أن يجد به كل مسقوم ما يفيده، ويحقق شفاءه فلا يبرحها إلا معافًى، فيصير له كسوة، أو متوفى فيكفن ويدفن[٢].

وأمر بتوفير فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى، وكذلك الطباخين والخدم[٣]، وقد نصب بها أسرة للمرضى وجهزت بجميع الفرش المحتاج إليها في المرض، وكان بها عدة أقسام فجعل بها أواوين البيمارستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها، وقاعة لأمراض الرمد والعيون، وقاعة للجراحة، وقاعة لمن به إسهال، وقاعة للنساء، ومكانًا للمبرودين – وهم من كانوا يقومون بمحاولات لخفض درجة حرارة المرضى، وقيل المختومين – وينقسم لقسمين: قسم للرجال، وقسم للنساء[٤]، وبها قاعة لتجبير وعلاج كسور العظام، وكان به أيضًا للممرودين وهم مرضى الجنون والأمراض العقلية، وكان لكل قسم من أقسام البيمارستان ما بين طبيب وثلاثة حسب اتساع القسم وعدد المرضى، لكل قسم رئيس، فكان فيه رئيس للأمراض الباطنية، ورئيس للجراحين، ورئيس للكحالين[٥].

كما كان به قسم مستقل خاص بالمجانين، ينقسم إلى جناحين متجاورين: أحدهما خاص بالمجانين الرجال، والآخر للنساء، ومن اللافت للانتباه أن أغلب الرحالة العرب

(١) حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ١/ ١٢٢ .
(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/ ٤٠٧.
(٣) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهو ٣٥٣/١.
(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢/ ٤٠٧.
(٥) محمد حمزة إسماعيل الحداد: السلطان المنصور قلاوون، ص١٣٠ .

الذين زاروا مصر في العصر المملوكي تحدثوا وأشادوا بالبيمارستان المنصوري، ومن هؤلاء ابن بطوطة الذي ذكر أنه يعجز عن وصف محاسنه «وأنه أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصى ويذكر» فكان هذا البيمارستان يقدم الخدمة الطبية إلى ما يقرب من أربعة آلاف مريض في اليوم[١].

وكذلك كان به قسم خارجي للكشف على المرضى وصرف الأدوية والأغذية لهم في المنزل، وقد وصفت حجة الوقف الخاص بالبيمارستان طريقة العمل به بدقة، وأكد على ذلك المؤرخون الذين أرخوا لهذه الفترة، وأكدوا أنه لم يكن بيمارستانًا فقط، بل كان يعتبر مدرسة للطب يدرس بها، وبه صيدلية كاملة خصصت لمعالجة جميع الأمراض، وقد وفر لهم النباتات الطبية التي كانوا يحتاجونها لتصنيع الأدوية الخاصة بهم، منها: القرنفل، والياسمين، كما اشترط في وقفه أن في كل ليلة يحضر من أرباب الآلات الموسيقية (موسقيون) يعزفون على العود حتى يساهر الضعفاء وتشفى أرواحهم العليلة، وخاصةً مرضى الأمراض النفسية، وخصص لهم رواتب شهرية[٢] - وهذا يعتبر علاجًا بالموسيقى، فكان بذلك أول من استخدم هذا النوع من العلاج في العالم في الوقت الذي كانت فيه أوربا تغرق في ظلمات الجهل، وكان يتم وضع مرضاهم النفسيين في أبراج وأماكن معزولة أطلق عليها أبراج المجانين، عراة، ويتعرضون لأبشع أنواع التعذيب، بثقب جماجمهم، وضربهم بشكل وحشي لخروج الأرواح الشريرة التي تسكن أجسادهم، وتخليصهم من المس الشيطاني الذي أصابهم؛ وبذلك يتضح أن البيمارستان كان يقدم خدمة طبية على مدار اليوم مفتوحة أبوابه دائمًا لمساعدة المرضى، للغني والفقير على حد سواء.

ويمكن القول إن السلطان قلاوون اتخذ إجراءات وقرارات لم يسبقه إليها أحد من حكام مصر منذ أيام الفراعنة، فقد ذُكر في حجة الوقف أن من الضروري تحضير الأدوية في أوانيها، وتخزينها لحين الحاجة إليها، على أن يصرف لكل مريض ما يحتاج إليه فقط دون زيادة أو نقصان، فقد كانت للبيمارستان خزانة كاملة للشراب ، كما سعى إلى توفير مراوح من الخوص يستخدمها المرضى لتخفيف حرارة الجو، في مراعاة لحالة الجو في مصر أثناء الصيف، وكذلك حرص الواقف على أن يتناول كل مريض غذاءه منفردًا من غير مشاركة مع مريض آخر زيادة في الحيطة، واتباعًا للطرق الصحية، ولتجنب انتقال العدوى فيما بينهم، كما خصص الوقف ليصرف من أمواله أيضًا على

(١) محمد حمزة إسماعيل الحداد: السلطان المنصور قلاوون، ص ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور١/١: ٣٥٣.

صناعة الأدوية اللازمة للمرضى من شراب ومراهم ودهانات وعقاقير والأكحال والترياقات والأقراص[١].

وقد عانى هذا الصرح من الإهمال والتهاون خلال الحكم العثماني، حيث كان يصرف أمواله في غير مصارفه المخصصة، وقد ذكر أحد الرحالة أن عدد المرضى به لم يزد عن خمسين إلى ستين مريضًا كانوا يشغلون قاعات الدور الأرضي مفتوحًا للهواء بدون أسرة أو منقولات، أما المرضى العقليون فكانوا يشغلون جزءًا آخر من المبنى مقسمًا إلى جزأين: الأول مخصص للرجال، والثاني للنساء، وكان عدد المجانين عشرة محبوسين في حجرة مسورة ومسلسلين من أعناقهم، أما النساء فكن عاريات أو شبه عاريات[٢]، كما تضمن المرضى عددًا كبيرًا من المكفوفين وعددًا أكبر من مرضى السرطان، وأصبح لا يقدم لهم أية رعاية أو أدوية، وأصبحت أوضاعهم سيئة للغاية، فتحول المكان إلى مأوى للمرضى يقدم لهم الطعام والخبز والأرز والعدس فقط[٣] .

وخلال الحملة الفرنسية قام رئيس أطباء الحملة، المسيو ديجينيت Desgenettes بصحبة الشيخ عبد الله الشرقاوي - شيخ الأزهر حينذاك - بزيارة البيمارستان ووضع تقرير خاص عنه، يتضمن هذا التقرير أفكاره الخاصة لإصلاحه وتحسينه، وقد أمدنا هذا التقرير بالكثير من المعلومات عن البيمارستان خلال هذه الفترة، حيث جاء فيه «البيمارستان محل واسع يقع في مكان سيئ جدًا، يستقبل مائة مريض، وفي الوقت الراهن يوجد به سبعة وعشرون مريضًا وأربعة عشر معتوهًا: سبعة رجال، وسبع نساء، ومن بين المرضى يوجد العديد من العميان، وعدد أكبر مصاب بالسرطان، وآخرين أنهكهم أمراض مزمنة أهملت في بدايتها، وجميعهم لا تقدم لهم أية رعاية سوى توزيع الغذاء المكون من الخبز والأرز والعدس، ولا يخطر على بالهم أنه يمكن أن تسكن آلامهم، وفي ظل هذا الإهمال المتروك لمشيئة القدر فإنهم لا يعرفون على الإطلاق أبسط أنواع الدواء، ويقيم المعتوهون في حوشين منفصلين، يحوي أحدهما ثماني عشرة حجرة للرجال، والآخر ثماني عشرة حجرة للنساء، وقد بدا لي الرجال باردين وسوداويين، وأغلبهم متقدمون في السن، وشاب واحد فقط كان في حالة هياج، ويزأر كالأسد، ولكنه تحول في خلال دقيقة، وعاد إلى هدوئه، وارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهاء، أما

(١) محمد حمزة الحداد: السلطان المنصور قلاوون، ص١٣١ .

(٢) علماء الحملة الفرنسية: وصف مصر ١٠/ ٢٠٢ .

(٣) محمد حمزة الحداد: المرجع السابق، ص١٣٧ . علماء الحملة الفرنسية: المرجع السابق، ص٢١٣ .

حجرات النساء فليست كلها محددة بسياج، ورغم أنهن جميعًا مسلسلات فإنهن غير مثبتات في الحائط مثل الرجال»[١].

وظل البيمارستان يؤدي وظيفته إلى عام ١٨٥٦ م، حيث دب إليه الانحلال، فلم يبق به سوى المجانين الذين نقلوا منه بعد ذلك إلى ورشة الجوخ في بولاق، ولم يكن هذا المكان به الاستعدادات اللازمة لذلك، وكانوا غير معتنى بهم هناك، فأنشئ لهم مستشفى في جزء من السراي الحمراء التي أنشأها الخديو إسماعيل في العباسية ١٨٨٠م[٢].

ثم تحول البيمارستان لمعالجة جميع الأمراض، ثم اقتصر بعد ذلك على معالجة أمراض العيون فقط منذ سنه ١٩١٥م، حيث قامت وزارة الأوقاف بتخصيص جزء من البيمارستان القديم لذلك، وهي باقية إلى الآن[٣].

ولم يبق من البيمارستان القديم سوى قسم من الإيوان الشرقي به فسقية رخامية كانت تنساب إليها المياه على سبيل صغير، تندفع منه إلى مجراه من الرخام الدقيق، كما يوجد به شبابيك أحيطت أفاريزها بكتابات كوفية، كذلك توجد بقايا من الإيوان الغربي وبه سلسبيل حليت حافته بحيوانات تنحدر عليها المياه الفسقية، فمجراة من الرخام تتلاقى مع المجراة المقابلة لها، ومثل هذا موجودة في قصر الحمراء بالأندلس[٤]. ولا تزال هذه المشفى تقوم بدورها في علاج مرضى العيون والرمد يحمل اسم منشئها، وتخلد ذكراه، وتعكس أهمية ما قام به هذا السلطان ويعتبر من محاسنه، وقد مدحها شعراء زمانه، وقالوا عنها الكثير، منهم من قال:

تمشي الملوك على آثار غيرهم وأنت تخلق ما تأتي و تبتدع

وقد صدق هذا الشاعر فيما قال، فما قام به السلطان المنصور قلاوون كان فريدًا في زمانه، ويرجع له الفضل في إنشاء هذا البيمارستان العريق .

ثانيًا - البيمارستان المؤيدي

شرع المؤيد شيخ في بنائه في جمادى الآخرة عام ٨٢١هـ-١٤١٨م، وانتهى من عمارته في رجب ٨٢٣هـ-١٤٢٠م، وبدأ في استقبال المرضى من منتصف شعبان، يقع البيمارستان ناحية طبلخاناة قلعة الجبل - حيث كانت مدرسة الأشرف شعبان بن حسين

(١) محمد حمزة الحداد: السلطان المنصور قلاوون، ص١٣٨.
(٢) حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية، ١/ ١٢٢.
(٣) محمد حمزة الحداد: المرجع السابق، ص١٣٩.
(٤) حسن عبد الوهاب: المرجع السابق، ص١٢٣.

التي هدمها الناصر فرج بن برقوق – وباب البيمارستان حيث كانت المدرسة وينتهي حده القبلي إلى القلعة وحده البحري إلى بيت الجناب السيفي سنقر المعروف قديمًا بأرغون، وحده الشرقي ينتهي إلى ساقية الأشرف، وفيه الباب الكبير ومكتبة وسبيل وأحد عشر حانوتًا، وحده الغربي ينتهي إلى سوق الخيل، وقد رتب السلطان المؤيد شيخ لهذا البيمارستان طبيبًا طبائيًا (للأمراض الباطنية) وكحالًا (لأمراض العيون)، وجراحًا (للجراحات العامة)، وحدد لهم رواتب ثلاثين نصفًا في الشهر، وكان يشرف بنفسه على كل ما يخص البيمارستان . وقد وفر نفقات البيمارستان من أوقاف الجامع المؤيد شيخ بجوار باب زويلة، وكان يقع بخط الرملية .

وظل البيمارستان يؤدي وظائفه حتى وفاته عام (٨٤٢هـ – ١٤٢١م) فتعطل عن العمل، وأخرج مَن كان فيه من المرضى وأغلق حتى سكنته طائفه من العجم، ثم استخدمه كاستراحة للرسل الواردين إلى السلطان من ملوك الشرق[١]. ثم استخدم حانة للخمور والفواحش ومربطًا للخيول، وظل على ذلك حتى زمن السلطان الأشرف برسباي، فجعله مسجدًا جامعًا تقام فيه الصلاة: الجمعة، والجماعة بعد أن جهز له السلطان منبرًا، ورتب له خطيبًا وإمامًا ومؤذنًا وبوابًا، فاستمر جامعًا تصرف رواتب القائمين عليه من ريع وقف الجامع المؤيدي[٢] .

بمرور الوقت تخرب هذا البيمارستان وامتدت إليه الأيدي بالهدم تارة والبناء تارة أخرى حتى ضاعت معالمه وظل مجهولًا بين العمائر حتى قامت لجنة حفظ الآثار الإسلامية في نهاية القرن التاسع عشر، وقررت ترميمه والعناية به كغيره من الآثار الإسلامية، وكان الجدار الجنوبي لمسجد أبي غالية السكري يحجب الواجهة الشمالية لهذا البيمارستان والتي تضم بوابة فخمة كاملة البناء. ولإظهار هذا الأثر رأت اللجنة هدم مسجد السكري، فظهرت واجهة البيمارستان بجمالها وفخامتها ورونقها، وما فيها من بديع النقوش والزخارف، واهتمت اللجنة بإرجاع هذا البيمارستان إلى حالته الأصلية بقدر ما سمح حينذاك حال الموجود من عمارته لما تمدنا المصادر بالكثير عن هذا البيمارستان، وطريقة العمل به، و قد يرجع ذلك إلى قصر الفترة الزمنية التي قام بها هذا المكان، بتقديم الخدمات الصحيــة للشعب، وإغلاقه فور وفاة مؤسسه[٣]، أما عن

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار٢/ ٤٠٨ . ابن إياس بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢/ ٣٨.
(٢) عاصم محمد رزق : العمارة الإسلامية بالقاهرة في العصر المماليك البرجية ، ١ / ٣٨٦،٣٨٧ .
(٣) لجنة حفظ الآثار القديمة والعربية: محاضر عن سنة ١٨٩٨م، المجموعة ١٥، ١٨٩٩، ص ٣٦ .

عمارة البيمارستان فتتكون عمارته الخارجية له من واجهة كبيرة شاهقة منكسرة في الناحية الشمالية الشرقية، يتوجها صف من الشرافات المكتوبة على هيئة الورق النباتية الثلاثية ، وتنقسم هذه الواجهة إلى ثلاثة أقسام يبرز أولها عن ثانيها بروزًا كبيرًا، وقد بني من الحجر الفصي النحت، وجعل المعمار في ركنه الشرقي عمودًا ذا جسم اسطواني عليه زخارف نباتية بارزة، له قاعدة وتاج، ويضم هذا الجزء من الواجهة صفين من الفتحات: أحدهما سفلي عبارة عن سبعة شبابيك مستطيلة تعلوها مضاهيات ذات عقود مدببة، والآخر علوي عبارة عن ست نوافذ متشابهة تتكون من ثلاث في الجانب الأيمن، وثلاث في الجانب الأيسر، كل منها عبارة عن فتحة ذات عقد مدبب يرتكز على عمودين رخاميين اسطوانيين، تليها فتحة في الصف الثاني وفتحتان في الصف الثالث، وفتحة واحدة في الصف الرابع، وأسفل هذا الجزء من الواجهة قبو حجري مدبب يسير بعرض البيمارستان من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي

ويتكون القسم الثاني – الذي يقع في الناحية الشمالية الشرقية – من مدخل رئيس يصعد إليه بسلم حجري ذي مطلعين ينتهي إلى بسطة مستطيلة يغلب عليَّ الظن أنها كانت محاطة بدروة رخامية، ويتقدم هذه البسطة حجر غائر تكتنفه مكسلتان حجريتان متماثلتان، يعلوها إزار غائر ضاعت كتاباته، وبين هاتين المكسلتين فتحة باب في أسفلها عتب جرانيتي، وفي أعلاها عتب حجري من صنجات معشقة يحيط به جفت لاعب ذو ميمات دائرية بلية نفيس فوقه عقد عانق من صنجات حجرية أيضًا . يلي ذلك دخلة ضحلة ذات عقد مدبب منكسر تتوسطها نافذتان ذواتي عقدين يرتكزان على عمودين رخاميين، صغيرة، وعلى جانبي هاتين الدخلتين مستطيلان زخرفيان تزينهما زخارف هندسية من خطوط غير منتظمة تحصر فيما بينهما أشكال مستطيلات غير منتظمة أيضًا، وزخارف هذه المدخل بشكل عام عن مربعات بداخلها دوائر تتوسطها عناصر نباتية بارزة، تعلوها مربعات أخرى بها بقايا كتابات كوفية، علاوة على زخارف من خطوط حلزونية في منطقتين مستطيلتين على جانبي النافذتين اللتين تعلوان الباب، وقد غطى هذا المدخل من الخارج بغطاء مدبب من الحجر الأبلق له صدر مقرنص بمقرنصات مقعرة ذات ولايات، يعلوها صف من الشرافات الحجرية المشابهة لبقية شرافات الواجهة، وغطي من الداخل بنصف قبة آجرية .

ويضم هذا القسم من الوجهة – على جانبي المدخل المشار إليه – دخلتين ضحلتين متشابهتين ذواتي عقدين مدببين، أسفل كل منهما كتابة نسخية بارزة، ونصها في الدخلة اليمنى (لا إله إلا الله)، ونصها في الدخلة اليسرى (محمد رسول الله)، ثم تنكسر

الواجهة في القسم الثالث في الناحية الجنوبية الشرقية بطول مترين تقريبًا، حيث تتوسطها ذات عقد مدبب في أسفلها فتحة باب بغير مصاريع، تنتهي إلى حجرة مستطيلة ملحقة، يعلوها عتب مستقيم من صنجات حجرية معشقة، ويليه نقش فوقه عانق من صنجات معشقة أيضًا، وفي أعلاها نافذتان مستطيلتان ذواتا عقدين نصف دائريين بينهما عمود رخامي اسطواني.

أما العمارة الداخلية لهذا البيمارستان، والتي فقدت سقوفها وأرضياتها، فهي عبارة عن المدخل الرئيس، يتكون من دركاة مستطيلة تفضي إلى داخل البيمارستان، وهو عبارة عن ثلاثة أقسام، يتكون قسمها الأوسط من قاعتين مربعتين تفتح الثانية على الأولى بعقد مماثل، ويتكون قسمها الجنوبي الشرقي - على يسار القسم الأوسط - من ثلاث قاعات مربعة متشابهة تفتح كل منها على الآخر بعقد مدبب، وقد سقطت جدران هذا القسم، ولم يبق منها غير جدران القاعة الداخلية، ويتكون قسمها الشمالي الغربي من مساحة مستطيلة كبيرة تعادل مساحة القسمين السابقين، في زاويتها الشرقية حجرة مستطيلة تطل على الواجهة ذات سقف من عروق الخشب مطبقة بالألواح، ويغلب عليها الظن أنها من عمل لجنة حفظ الآثار العربية والإسلامية، والتي أجرت في الوقت الحاضر عملية ترميم واسعة لهذه البيمارستان[1]، وأعيد إليه رونقه وجمال عمارته .

ومما سبق يمكن القول إن أهم هذه البيمارستانات على الإطلاق، والتي لا تزال قائمة، وتدل آثارها على عظمتها هو البيمارستان الكبير المنصوري، والذي بناه السلطان المنصور قلاوون، ولا تزال آثاره تشهد بعظمته وعظمة مؤسسه الذي كان له الفضل في إنشاء هذا الكيان العريق، كما أمدتنا حجة الوقف الخاص بمجموعته المعمارية بالكثير من المعلومات الخاصة بالبيمارستان، وطريق تشغيله، والأطباء والعاملين به، وكذلك طريقة العلاج، والأدوية المستخدمة لذلك، وكان يقوم بعلاج جميع الأمراض، ولكنه الآن اقتصر على علاج أمراض العيون، وآثار المباني القديمة به تشهد على روعة البناء وجمال عمارته.

وبالحديث عن البيمارستانات يجب الإشارة إلى ما وصل إليه علم الطب من تقدم وارتقاء في ذلك العصر، حيث تقدمت وسائل دراسته فكثرت المؤلفات التي وضعها كبار علماء الطب في الدولة الإسلامية، وأصبحت المكتبة العربية ذاخرة بهذه المصادر المهمة. وقد نالت مهنة الطب الكثير من التقدير والاحترام، كما كانت من المهن المربحة ماديًا،

(١) عاصم محمد رزق: العمارة الإسلامية، ص ٢٨٧.

فكان الخلفاء والسلاطين يغدقون الأموال على أطبائهم الخصوصيين، فضلًا عما يفرضونه لهم من المرتبات في كل شهر [١].

فكان دارس الطب يجتهد في دروسه يحفزه في ذلك ما كان ينتظره من مجد مادي وأدبي، فكثر عدد الأطباء، منهم من خلد التاريخ أسماءهم، وتنوعوا في مختلف التخصصات، منها: باطني، وأمراض العيون (وكان يسمي كحَّال)، وجرَّاح، ومعالج للعظام (وكان يسمي مجبرًا) [٢].

وكانت الدولة تقوم بمراقبة وتنظيم مهنة الطب عن طريق شخصية المحتسب، والذي كان من مهامه - بجانب الإشراف على شئون المدينة وتنظيم الأسواق - هو مراقبة الأطباء، وأن يأخذ عليهم عقد بقراط، وبالحفاظ على حياة المرضى وألا يعطى أحد منهم دواءً مضرًا أو به سم. وكان يعتمد في تدريس الطب حيذاك على المصادر اليونانية والعربية، فكانت اليونانية منها كتب بقراط، وكتب جالينوس[*].

أما الكتب العربية، فمنها: كتاب القانون، لابن سينا، و كتاب الحاوي، للرازي، وغيرها من المصادر التي كان لها الفضل في تطور علم الطب في تاريخنا الحديث، وكان الطالب يدرس الطب نظريًا وعمليًا، حيث نظم أساتذته دورسًا عملية داخل البيمارستانات لفحص المرضى عمليًا، وتشخيص المرض، ووصف الدواء المناسب للحالة؛ فبذلك كانت البيمارستانات بمثابة كليات طب لشرح ووصف الداء والدواء للمتعلمين بشكل عملي على الحالات المماثلة[٣]، ويعتبر البيمارستان المنصوري أعظم وأهم المستشفيات والكليات الطبية خلال هذه الفترة التاريخية، وأوضحت الوثيقة الخاصة بوقف البيمارستان أن خدماته لم تقتصر على معالجة المرضى، بل تعدى الأمر إلى تدريس الطب، فكان بذلك سابقًا عصره، يشبه إلى حد كبير ما يتم في كبار المستشفيات في العصر الحديث من إلحاق كليات الطب بها، حيث تتوافر الدراسة العملية، ومن أشهر أطباء البيمارستان المنصوري ابن النفيس، والطبيب مهذب الدين بن أبي حليقة - وهما

(١) عاصم محمد رزق: العمارة الإسلامية، ص٣٨٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٨٨ .

(*) من كتب بقراط: كتاب الأجنة، وكتاب الأخلاط، وكتاب الأمراض الحادة، وكتاب الأمراض الوافدة، وكتاب الأهوية والمياه والبلدان، وكتاب الثور، وكتاب البول، وكتاب الفصول، وكتاب الكسر والجبر. أما عن كتب جالينوس، فمنها: كتاب العلل والأعراض، وكتاب منافع الأعضاء، وكتاب الصناعة الصغيرة، وكتاب النبض، وكتاب التأني لشفاء الأمراض، وكتاب المزاج . لمزيد من المعلومات انظر: أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، ص ٣٠٩- ٣١١ .

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٠٧، ٣١٢ .

من أشهر مدرسي الطب بالبيمارستان، أما الدروس النظرية، فكانت تدرس بالمساجد والمدارس[١]؛ وبذلك يظهر أن دراسة الطب في مصر تميزت بالتقدم والتطور، وساهم في ذلك اهتمام السلاطين والخلفاء بتوفير الخدمات الطبية اللازمة للرعية، في محاولة للحد من انتشار الأوبئة والأمراض التي كانت تحصد أرواح الألوف خلال هذه الفترة، وذلك بتشجيع الأطباء على ممارسة أعمالهم بمنحهم رواتب مرتفعة وهدايا ومنح، وكذلك الاهتمام بإنشاء البيمارستانات، ورصد الأوقاف لها لتوفير النفقات اللازمة، ضمانًا لاستمرار العمل بها بعد وفاة من قام بإنشائها، فتعتبر صدقة جارية على روحه، وتخليدًا لذكره.

(١) علي سالم النباهين: نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، ص ٢٧٣.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً- المصادر:

- ابن الأثير (علي بن محمد بن عبد الله الشيباني الجزري المعروف ت٦٣٠هـ):
- الكامل في التاريخ ، القاهرة ، بدون تاريخ .
-ابن إياس: (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ت٩٣٠ هـ):
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ت:محمد مصطفي ، مطبعة دار الكتب و الوثائق القومية ، القاهرة ٢٠٠٨ .
- ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب ت٧٧٩ هـ):
- تذكرة النبية في أيام المنصور وبنية ، ت: محمد محمد أمين ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٦.
- العيني (بدرالدين محمود العيني ت٨٥٥ هـ) :
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تحقيق : محمد محمد أمين ، دار الكتب و الوثائق القومية القاهرة، القاهرة٢٠١٠.
- أبو الفدا (الحافظ المعروف بابن كثيرت٧٧٤ هـ) :
- البداية والنهاية ، مكتبة دار المعارف ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٠ .
-المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت٨٤٥ هـ):
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط و الآثار المعروف بالخطط المقريزية ، مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة ، بدون تاريخ
- كتاب السلوك ، دار الكتب و الوثائق القومية ، القاهرة ٢٠٠٩.
-ابن عبد الظاهر (محي الدين ابو الفضل عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر السعدي المصري المعروف بابن عبد الظاهرت٩٣٠ هـ):
- الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، ط١ ، القاهرة ١٩٩٦.

ثانيًا: المراجع

- أحمد أحمد بدوي :

- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧٢.

- أحمد فكري :

- مساجد القاهرة و مداسها ، دار المعارف بمصر ، مطبعة محمدون بوسكو ، الاسكندرية ١٩٦١.

أيمن فؤاد سيد:

-التطور العمراني لمدينة القاهرة منذ نشأتها الي الآن ، الدار المصرية اللبنانية ، ط١ . القاهرة ١٩٩٧.

- تغريد عرفة :

-آثار القاهرة الإسلامية من كتاب وصف مصر ، مكتبة مدبولي ،القاهرة ، ٢٠١٤.

- حسن عبد الوهاب :

تاريخ المساجد الأثرية في القاهرة ، ج١،ط٢ ، مكتبة الدار للكتاب ، ١٩٩٣.

- دي فوجاني :

-القاهرة وضواحيها ، ت: مدحت عايد فهمي ، ط١. القاهرة ٢٠٠٤.

- سهير زكي حواس :

القاهرة الخديوية ، ط١ . القاهرة ،٢٠٠٢ .

- صلاح رفعت محمد علي :

- العمارة الإسلامية في العصر الإسلامي ،دار التعلم الجامعي ، الاسكندرية ،٢٠١٨.

- عاصم محمد رزق :

- العمارة الإسلامية بالقاهرة في العصر المماليك البرجية (٧٨٤هـ -٩٢٣هـ ، ١٣٨٢م ذ ١٥١٧م) ، ج١ ، مكتبة مدبولي القاهرة ٢٠٠٣.

علي حسن الخربوطلي :

- مصر العربية الإسلامية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٣.

-علي سالم النباهين :

-نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر ، ط١ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٢٧٣.

- علي محمد محمد الصلابي :

-الدولة الأموية عوامل الازدهار و تداعيات الانهيار ، ،ط١ ، دار التوزيع و النشر الإسلامية ، القاهرة ٢٠٠٦.

-علماء الحملة الفرنسية :

ترجمة زهير الشايب ،مني زهير الشايب ، وصف مصر ،عن مدينة القاهرة ، دار الشايب للنشر ، القاهرة ،ط١، ١٩٩٢.

- محمد حمزة اسماعيل الحداد: السلطان المنصور قلاوون ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٩٨.

- لجنة حفظ الآثار القديمة والعربية : محاضرة عن سنة ١٨٩٨م ، المجموعة ١٥ ، المطبعة الأميرية ١٨٩٩.